

العنوان:	طرق تزكية النفس عند الإمام أبي حامد الغزالي
المصدر:	دراسات - الجزائر
المؤلف الرئيسي:	الأخضر، قويدري
المجلد/العدد:	ع18
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2011
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	78 - 90
رقم MD:	700546
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EduSearch, IslamicInfo, AraBase, HumanIndex
مواضيع:	تزكية النفس
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/700546

هرق تزكية النفس عند الإمام أبي حامد الغزالي

د. قويدري الأخضر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الأغواط

إنَّ التجربة الروحية التي عاشها الإمام الغزالي في البحث عن الحقيقة، كانت إحدى أهم الخصائص التي ميّزته عن غيره من شيوخ التربية الصوفية. فلقد أدرك من خلال تلك التجربة أن إحياء معاني الدين في القلوب، لا يكون إلا بشوثة روحية تغيّر معالم الشخصية الإسلامية، و تعيدها إلى اعتدالها بعد أن أصابها السقم والاعوجاج. فكان خطابه التربوي روحيا في جوهره، مُوجَّها إلى كل مسلم يتشوف إلى تحقيق ما بلغه العارفون من ارتقاء في مراتب العرفان. ومن هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة لتتناول بالبحث والتحليل قواعد تزكية النفس الذي دعا إليها رحمه الله .

- دور الشيخ المريبي في عملية التزكية :

تتمثل عملية التزكية عند الصوفية في مجاهدة النفس وتربية الروح، وأصل المجاهدة "مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبية على نفس المرید"¹. وفراسة الشيخ المريبي وخبرته في التربية الروحية تمكّناه من اكتشاف الأمراض الروحية الواجب علاجها لدى المرید مراعيًا في ذلك الفروق الفردية الموجودة بين المریدين فلا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص، وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم. وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المریدين بنمط واحد من الرياضة أهلكتهم، و أمات قلوبهم. فينبغي إذن أن " ينظر في مرض كل واحد منهم، وفي حاله وسنّه ومزاجه وما تحتمله بنيته من المجاهدات، ثم يبيّن على ذلك رياضته"². ولذا تختلف طرق التزكية باختلاف مستويات المریدين، العلمية، و تفاوت أخلاقهم وطباعهم وقدراتهم واستعداداتهم. فإن كان المرید مبتدئا جاهلا بحدود الشريعة علّمه الشيخ الطهارة والصلاة وظاهر العبادات³، لأن التصوف تحقيق لمقام الإحسان ولا يُبنى ذلك المقام الرفيع إلا على أسس الشريعة. وإن كان المرید مشغولا بمال حرام أو مقارفا لمعصية، أمره الشيخ بتركها والتوبة منها⁴.

¹ الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج 3 ص 75

² المرجع نفسه، ص 61، 62.

³ المرجع نفسه.

⁴ المرجع نفسه .

تلك هي بدايات التطهير والتزكية التي لا يصحّ سلوك المرید إلا إذا أحكمها. ومثال ذلك أن العاقل لا يضع اللبن، إلا بعد تطهير الإناء من الأوساخ. فكذلك أسرار الدين لا تعطى إلا لمن طهّر قلبه من الأدران. فإذا تزین المرید بالعبادات، وطهّر جوارحه عن المعاصي الظاهرة، نظر الشيخ، بقرائن الأحوال، إلى باطنه فيصلح أخلاقه، ويعالج أمراض قلبه¹. ومن هنا تبدأ تربيته الروحية، والتغيير الجذري لشخصيته، بحسب ما تقتضيه أحواله. فإن رأى الشيخ معه مالا زائدا عن ضرورته أخذ منه، وصرفه إلى الخيرات، وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه². وإن رأى الرعونة والكبر وعزّة النفس غالبية عليه أمره بأعمال مباحة تذهب تلك الأمراض من قلبه، كأن يأمره "بالخروج إلى الأسواق للكُدية، والسؤال، فيكلفه المواظبة على ذلك مدة، حتى ينكسر كبره وعزّة نفسه. فإن عزّة النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالذل"³.

وقد يبدو هذا الأسلوب مستشعنا في نظر بعض الدارسين للتصوف، غير أن الغزالي كمرّب قد وجد فيه علاجاً سلوكياً فعالاً لعلّة خطيرة لا تزيلها المواعظ والدروس، وإنما تزيلها الأعمال التي تستثقلها النفس المتكبرة. ثم إن ذلك المرید الذي قدم على التسوّل بأمر من شيخه، هو شخص مريض يبحث عن علاج لدائه والمريض لا يشترط على الطبيب الخبير، نوعية الدواء، ولا أسلوب العلاج.

والحقيقة أن هذه الطريقة ليست هي الوحيدة في علاج مرض الكبر، فالطرق لذلك كثيرة ومتعددة، وكل ذلك يتوقف على ما يراه الشيخ مفيداً.

ولقد اقترح الغزالي أساليب أخرى لعلاج هذا المرض منها:

. أن يوطن المرید المصاب بذلك الداء . نفسه على الرضوخ للحق متى ما ناظره أحد في مسألة من المسائل، بل ويزيد على ذلك، فيتوجه إليه بالثناء والشكر.

. ومنها أن يتكلف تقديم أقرانه في المحافل، على نفسه، و يمشي خلفهم، ولا يتصدر المجالس.

. ومنها إجابة دعوة الفقير إذا دعاه.

. ومنها أن يكلف نفسه حمل حاجة نفسه، وحاجة أهله، ورفقائه، من السوق إلى البيت حتى تنكسر نفسه، ويزول عنها الصلف والتعالي⁴.

هكذا يتبين لنا أن التصوف لا يصلح . كما قال الشيخ أبو سليمان الداراني (ت 215هـ) " إلا لقوام كنست بأرواحهم المزابل"⁵. ومعنى ذلك أن النفوس المدتّسة بالأمراض كالكبر والعجب والحسد وغيرها، لا يمكنها إطلاقاً أن تذوق معرفة الله إلا إذا شُفيت من تلك الأمراض وصارت أرواحاً نورانية .

¹ المرجع نفسه.

² المرجع نفسه ، ص 61.

³ المرجع نفسه.

⁴ المرجع نفسه ، ص 367، 368.

⁵ الشعراي عبد الوهاب، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، ج2، ص 160.

إن كثيرا من الدارسين للتصوف ينعنون بإعجاب وتقدير حينما يذكرون أحوال الصوفية وسلوكياتهم الراقية. ولكنهم ربما يغفلون عن حقيقة أساسية وهي أن أولئك الرجال ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من أخلاق سنيّة إلا عندما ألغوا شخصياتهم المريضة واستبدلوها بشخصيات سليمة، ولا يكون ذلك الإلغاء إلا بتجرع مرارة التواضع والانكسار. ومن الأمراض النفسية التي حذر منها الغزالي أيضا، **اشتغال المريء بعبادة نفسه من خلال الإفراط في النظافة والتزيّن**. ولا شك أن حالة مثل هذه تعتبر عائقا كبيرا في طريق السلوك، فهي بحسب لغة علم النفس الحديث، **نرجسية**¹ لا بد أن يتحرر الإنسان منها.

ومن الطرق التي اقترحها الغزالي في علاج هذا المرض، أن يقوم الشيخ باستخدام ذلك المريء المريض "في تعهد بيت الخلاء، وتنظيفه، وكنس المواضع القذرة، وملازمة المطبخ، ومواضع الدخان، حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة"². وقد ينكر من لا خبرة له بإصلاح النفوس هذا الأسلوب التربوي، لكن يجب أن نعرف أن الشيخ لا يفعل ذلك جهلا منه بالدين، ولا استخفافا منه بقيمة النظافة، ولكن يفعله كعلاج سلوكي عملي، لا يقوم على مجرد النصح الكلامي، ولكنه يتأسس على الممارسة التطبيقية لأفعال تنفر منها النفس المريضة التي ألفت التعالي **والتمركز حول الذات**، على أن هذا العلاج مرتبط ببقاء تلك **النرجسية**، فإذا شُفي المريء منها أرجعه الشيخ إلى الحالة الطبيعية وأمره بوجود النظافة. ومن الأمراض الخطيرة، **مرض الشراهة في الأكل**. وقد قدّم الغزالي أسلوبا يمكن للشيخ أن يعتمد في علاجه مريده منه، وهو أن يأمره بتقليل الطعام أو الصوم "ثم يكلفه أن يهيب الأظعمة اللذيذة، ويقدمها إلى غيره، وهو لا يأكل منها، حتى يقويّ بذلك نفسه، فيتعود الصبر وينكسر شرهه"³.

و يمكن أن تستنتج مما سبق أن الأساليب المذكورة تعكس عمق النظرية الصوفية في العلاج النفسي، وهي نظرية. كما هو واضح. تقوم على اعتماد المسلك المضاد لكل ما تهاوه النفس المريضة، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فِإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 41] فنهى النفس عن الهوى، هو علاجها بما يخالف شهواتها.

هذا وقد تكلم الغزالي عن جملة من اللطائف في علاج ما استعصى من الأمراض النفسية، من بينها أن الشيخ إذا وجد عسرا في اقتلاع خلق مذموم لدى أحد المريدين، استعمل حيلة نفسية في ذلك بحيث "ينقله من الخلق المذموم إلى خلق أخفّ منه"⁴ ومثال ذلك أن "من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة واحدة فليُنقل إلى جاه أخفّ منه"⁵ وهكذا تتم عملية التدرج في اقتلاع ذلك الخلق المذموم حتى يغيب كلية.

¹ النرجسية: هي الحب الموجه إلى صورة الذات، ينظر: لا بلانش جان، و بوتاليس ج، ب، معجم مصطلحات التحليل النفسي ترجمة مصطفى حجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1985، ص512.

² الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص61.

³ الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج3 ص62.

⁴ المرجع نفسه.

⁵ المرجع نفسه.

ومن لطائف الرياضة الروحية أيضا، أن يُعالج مرض بمرض آخر أخفّ منه. ومثال ذلك ما اقترحه الغزالي كوسيلة لعلاج مرض البخل، حيث يؤمر المصاب بذلك الداء " أن يتكَلَّف البذل... وأن يحدِّع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء، فيبذل على قصد الرياء، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا في حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل، واكتسب خبث الرياء. ولكن ينعطف على الرياء، ويزيله بعلاجه. ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال كما يُسَلَى الصبي عن الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها، لا ليحلى واللعب ولكن لينفك عن الثدي إليه، ثم ينقل عنه إلى غيره"¹.

لكن هذا الأسلوب لا يفيد إلا "في حقّ من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء، فيبذل الأقوى بالأضعف، فإن كان الجاه محبوبا عنده كالمال، فلا فائدة فيه فإنه يقلع من علة ويزيد في أخرى مثلها"².

لكن كيف يستطيع المرید التمييز بين تلك الأمراض الروحية المتشابهة ومعرفة أشدها أو أضعفها تمكنا في قلبه؟ وحتى لو أدرك ذلك فهل بإمكانه أن يعالج نفسه بنفسه؟

والجواب . حسب ما اتفق عليه كل الصوفية . أن المرید أو أي إنسان آخر عاجز عن اكتشاف خفايا نفسه بنفسه، كما أنه عاجز عن علاج ما بطن فيها من العيوب بمفرده، ولذا كانت صحبة الشيخ المرید ضرورة لا مفر منها. وفي ذلك يقول أحد العارفين المعاصرين وهو الشيخ محمد بن الحبيب³ (مخلع البسيط) :

"فخالف النفس في هواها	وصاحبن عارفا رباني
يريك من عيبها الخفي	يعالجن بالدوا الروحاني
يفنيك بالذكر في الحقيقة	يذكر القلب بالقرآن
يسلك بالرفق في المسير	يرحم أهل البلا، والجاني
يروّح الروح بالإشاره	فتنجلي عندها المعاني" ⁴

- أسس التزكية النفسية :

لا بد أن نشير إلى أن الغزالي في الربع الثالث من كتاب إحياء علوم الدين قد أفاض في علاج الأمراض القلبية، وقدم لكل مرض علاجا معرفيا علميا وآخر عمليا سلوكيا.

. فالعلاج المعرفي العلمي: يقوم على المعرفة بخطورة المرض من خلال النصوص الدينية ومن خلال كلام العلماء.

¹ المرجع نفسه.

² المرجع نفسه.

³ ولد في فاس سنة 1871م، وترقى في الدرجات العلمية، حتى أصبح من كبار العلماء في المغرب. درس طويلا بمجامع القرويين بالإضافة إلى تأسيسه لطريقة صوفية سميت باسمه، والتي تعتبر فرعا من الطريقة الشاذلية الكبرى. توفي بمدينة البليدة سنة 1972م ثم نقلت رفاته إلى مدينة مكناس. خلف عدة زوايا بالقطر الجزائري. واستطاع تلاميذه الأوروبيون أن يفتحوا عدة زوايا، في المكسيك وإسبانيا وإنجلترا، وجنوب إفريقيا.

⁴ ابن الحبيب محمد، بغية المریدين السائرين وتحفة السالكين العارفين، ص ص 52 ، 53.

- أما العلاج العملي السلوكي: فيتمثل في الإقدام على بعض الأعمال التي تحتث المرض من أصله. لأن المعرفة . وإن كانت أصلاً ضرورياً في العلاج الروحي . لا تؤتي ثمارها ما لم تقتزن بالجانب العملي . ومثال ذلك أن المرء قد يحفظ كتباً عديدة حول خطورة مرض كالكبر أو الحسد أو الأنانية أو غيرها، وربما جلس أمام الناس داعياً و مرشداً، و لكنه مع ذلك، يحمل في قلبه رجس المرض الذي يحذر الناس منه. والسبب في ذلك أنه اكتسب العلم والمقال، لكن فاته الذوق والحال وهما مطلبان جليلان لا يتحققان ما لم يُسلم هذا الإنسان نفسه المريضة لطبيب خبير بعلاج مثل هذه الأمراض، فيوجهه إلى طرق المجاهدات والمكابدات ويرشده إلى ما يُعينه على اقتلاع اقتلاعها من جذوره.

ومما يجب ذكره أن الغزالي ركّز كثيراً على ضرورة معرفة الشيخ بالمزاج النفسي للمريد ومعرفة سنّه ومستواه العلمي وحالته الصحية، وأمراضه القلبية مؤكداً أن تلك المطالب ضرورية قبل الشروع في الرياضة الروحية. مما يثبت أن التربية الروحية علم حسّاس ودقيق لا يفقه طرائقه إلا المتخصصون في ذلك، وهم كُتّمل مشايخ التربية الروحية.

ومن المهمّ أن نذكر أن الغزالي يدعو إلى أربع رياضات عملية متّفق على أهميتها لدى كل الصوفية وهي : الجوع، والسهر، والصمت، والخلوة¹. وفي ذلك قال الإمام سهل بن عبد الله التستري(ت273 أو 283هـ) "جماع الخير كله في هذه الخصال الأربعة، و بما صارت الأبدال² أبدالاً، إخماس البطون، والصمت، والاعتزال عن الخلق، وسهر الليل"³ ولهذا السلوكات فوائد جمّة نذكرها كالتالي :

أ. فوائد الجوع⁴: فالأكل يُقسّي القلب وفي قسوته حجاب، بينما الجوع يساعد على إنقاص دم الفؤاد وتذويب شحمه، وفي ذوبانه رفته، ورقته مفتاح المكاشفة⁵. وقد وصف الغزالي طريقة تسهّل على المريد التعوّد على الجوع نلمسها من نصيحته لمريده: "وليكن زادك وزنا تنقص كل يوم منه لقمة... فقلّل ولا تتعلل، وخفّف وطقّف في ماأكلك تلتحق بعالم الملائكة"⁶.

ب. فوائد السهر:

¹ الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص ص76، 77.

² البلاء أو الأبدال: هم سبعة رجال يسافر أحدهم عن موضع ويترك فيه جسداً على صورته بحيث لا يعرف أحد أنه فقد، وهم على قلب سيدنا إبراهيم عليه السلام. ينظر: القاشاني عبد الرزاق، اصطلاحات الصوفية، تحقيق محمد كمال إبراهيم جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981 ص 36.

³ الغزالي، منهاج العابدين، ص 44.

⁴ الغزالي، منهاج العابدين، ص 44.

⁵ عدّ الغزالي للجوع عشر فوائد هي : 1. إيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة، 2. رقة القلب وصفاؤه، 3. الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر، 4. تذكر أهل البلاء من الفقراء والجياع، 5. كسر شهوات المعاصي، 6. دفع النوم ودوام السهر، 7. تيسير المواظبة على العبادة، 8. صحة البدن، 9. خفة المؤونة والتقليل من إنفاق المال، 10. التمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين. لمزيد من التفصيل ينظر: إحياء علوم الدين، ج3، الصفحات من 84 حتى 88.

⁶ الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص ص76، 77.

⁶ الغزالي، سر العالمين وكشف ما في الدارين، ضمن رسائل الغزالي، ص 502.

فالمرید أثناء رياضته في حاجة إلى السهر حتى يصفو قلبه ويتنور. وسهره ذلك ناتج عن الجوع. ولا أضّر على المرید من النوم لأنه يسبب قسوة القلب و موته إلا إذا كان بقدر الضرورة¹.

ج . فوائد الصمت:

وللصمت في نظر الغزالي أبعاد أخلاقية ومعرفية تتمثل في أنه يلقح العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى، في حين أنّ الكلام يشغل قلب المرید، فيستثقل التجرد للذكر والفكر؛ ولذا يجب أن لا يكون كلامه أثناء رياضته إلا بقدر الضرورة. "ولا يتحقق الصمت إلا بالعزلة فإنها مساعدة عليه"².

د . فوائد الخلوة:

يشبّه الغزالي السمع والبصر بنهرين تنصبّ منهما مياه قدرة كريهة لحوض القلب، والمطلوب في الرياضة الروحية هو تطهير القلب من تلك المياه والأوساخ الحاصلة منها، وتفجير المعارف الباطنية الكامنة في أصله حتى يخرج منه ماء المعارف نظيفا طاهرا. ولذا لا بد من ضبط الحواس بقدر الضرورة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم "وإن لم يكن ذلك ممكنا وجب على المرید أن يلفّ رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار"³ حتى يمنع حواسه من الاشتغال بالعالم الخارجي.

ومما يوصي به الغزالي دخول المرید إلى الخلوة الأربعينية، فيقول: "... عليك بالخلوات الأربعينية التي يسميها مشايخ العجم جلهم فهي عند العجم الجلاء، واعتدّ بها"⁴.

وقد حظيت تلك المدة باهتمام الصوفية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"، كما أنهم وجدوا في قصة سيدنا موسى عليه السلام، سندا شرعيا لذلك. فقد أمر الله تعالى سيدنا موسى بتخصيص تلك المدة للتبتل تحضيرا لمناجاته وذلك ما دلت عليه الآية الكريمة ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ [البقرة: 15]

وقد أفصح الإمام السهروردي (632.539هـ) عن بعض الأسرار الروحية لتلك المدة على وجه الخصوص فقال: "... وذلك أن الله تعالى لما أراد تكوين آدم من تراب قدر التخميم بهذا القدر من العدد... ليعُد بالتخميم أربعين صباحا بأربعين حجابا من الحضرة الإلهية، كل حجاب هو معنى مودع فيه يصلح به لعمارة الدنيا و يتعوق به عن الحضرة الإلهية ومواطن القرب... وعلى قدر زوال كل حجاب ينحذب ويتخذ منزلا في القرب من الحضرة الإلهية التي هي مجمع العلوم ومصدرها. فإذا تمّت الأربعون زالت الحجب وانصبت إليه العلوم والمعارف انصبابا"⁵

¹ الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، 76.

² المرجع نفسه.

³ المرجع نفسه.

⁴ الغزالي، سر العالمين وكشف ما في الدارين، ص 502.

⁵ السهروردي عوارف المعارف، الكتاب الثالث من ملحق إحياء علوم الدين للغزالي، يضمّ كتاب تعريف الأحياء بفضائل الأحياء للعراقي، والإملاء من إشكالات الإحياء للغزالي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ص 121.

غير أن الصوفية لم يتفقوا جميعا على تلك المدة، فمنهم من جعلها أربعين يوما و منهم من جعلها عشرة أيام تأسيا بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث اعتكف عشرة "وأكثرها عند القوم لا حد له"¹.

- النتائج العرفانية للذكر:

يعتبر ذكر الله من أفضل الوسائل المعتمدة في التربية الصوفية. وفيه يقول الغزالي "اعلم أن الآيات الدالة على الذكر، والأخبار كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فأذكروني أذكركم﴾ [البقرة: 152] وقوله: ﴿اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾ [الأحزاب: 41]. وقوله: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ [العنكبوت: 45]. وقوله: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾ [الأعراف: 205]

أما الأحاديث الدالة على فضل الذكر فأكثر من أن تحصى " فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجل يتصدق بمال حلال وآخر يذكر الله من صلاة الصبح إلى طلوع الشمس فأبي الرجلين أفضل؟ فقال ولذكر الله أكبر"² والأذكار متنوعة فمنها ما هو قرآن، ومنها ما هو تسيح، ومنها ما هو صلوات على النبي صلى الله عليه وسلم، و منها ما هو استغفار، ودعاء وغيرها³. وكلها مفيدة ونافعة للتعبد والتزكية.

ثم إن الذكر منه ما هو علني وهذا " يستحب في التلاوات في هياكل العبادات"⁴. ومنه ما هو خفي وهو أفضل لأنه " ليس فيه أذى، وهو خالص عن الرياء والنفاق مثل صوم السر وصدقته"⁵.

وقد بيّن الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) منهجية خاصة لذكر الله، تعدّ امتدادا وتفصيلا لطريقة الإمام الجنيد رحمه الله. فبعد أن يتخلّص المرید من العوائق المذكورة آنفا ويضعف سطوتها بأنواع المجاهدات يكون مؤهلا للدخول في طور آخر من الرياضة التي تعتمد كثيرا على التفكير .

ويمكن تقسيم هذا الرياضة إلى المراحل الموالية :

أ. مرحلة تلقين الذكر الخاص: وهي تتعلق بدخول المرید إلى الخلوة بحيث يأمره الشيخ بالإنفراد في مكان هادئ، ويوكل به من يقوم بخدمته بقدر يسير من القوت الحلال، لأن أصل طريق الدين القوت الحلال، فإذا تسبب المكسب الحرام إلى المرید انهار بنيان رياضته. ثم يلقنه ذكرا خاصا يختاره له بحسب ما يراه ملائما لاستعداده مثل لا إله إلا الله، أو سبحان الله، أو الله أكبر، أو غيرها من الأذكار، ويلزمه بتزديد ذلك الذكر بلسانه، ويمنعه من تكثير الأوراد والعبادات، بل يأمره بالاققتصار على الفرائض والرواتب⁶.

ب. مرحلة التصاق الذكر باللسان:

¹ زروق أبو العباس أحمد بن أحمد، قواعد التصوف تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2003م، قاعدة 114، ص 77.

² الغزالي، سر العالمين وكشف ما في الدارين، ص 494.

³ المرجع نفسه، ص ص 494، 595.

⁴ المرجع نفسه، ص 494.

⁵ المرجع نفسه.

⁶ الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 3، ص 77.

ومواظبة السالك ليله ونهاره على الذكر الملقن بالإذن، تطراً عليه أحوال نفسية، بحيث تسقط حركة اللسان، وتكون الكلمة المذكورة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك. والمطلوب منه في هذه الحالة أن يواصل السير غير آبه بما يطرأ عليه من أحوال نفسية¹.

ج . مرحلة ارتسام حروف الذكر في القلب :

ثم تتطور أحواله الباطنية فيشعر بانتقال أثر الذكر من اللسان إلى القلب بحيث ترسم الحروف على قلبه فيشاهدها بعين بصيرته².

د . مرحلة الفناء في المذكور :

ثم لا يزال المريد كذلك حتى تتمحي عن القلب حروف اللفظ وصورته، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب، حاضرة معه غالباً عليه، ولا يبقى فيه شيء سوى المذكور³.

هـ . مرحلة مجاهدة الخواطر والتلبيسات العقديّة :

ومن الملاحظ أنه أثناء الذكر تهجم على المريد جملة من الخواطر والوساوس النفسانية والشيطانية، فيجب عليه في هذه الحالة أن يجتهد في دفعها ولا يتركها تستحوذ على قلبه، لأنه إذا اشتغل بشيء منها ولو في لحظة، تشوّش وغفل عن الذكر، وكان ذلك نقصاناً في رياضته.

ومن أخطر الوساوس التي يمكن أن تهجم على السالك، تلك المتعلقة بالعقيدة بحيث يتشكك في عبارة الله التي ارتسمت في قلبه ويتساءل ما هي؟ وما معناها؟ ولأي معنى كان الله إلهاً ومعبوداً؟ وغير ذلك من الوساوس التي ينفثها الشيطان بقلبه⁴.

وقد بيّن الغزالي أن تلك الوساوس ما هي إلا نزغات شيطانية لا ينبغي للسالك أن يركن إليها.

وفي هذه الحالة يتعيّن عليه أن يحدّث شيخه بكل ما يجده في قلبه ولا يخفي عليه شيئاً. يقول الغزالي موجهاً نصحه للمريد: "... كل ما تجده في الخلوة تعرّفه شيخك، فالشيخ في قومه كالنبيّ في أمته، ومن ليس له شيخ فالشيطان شيخه"⁵، على أن تلك الأحوال يجب أن تبقى سرّاً بينه وبين شيخه فلا يُطلع أحداً عليها⁶.

إن مرحلة هجوم الخواطر والوساوس على قلب السالك تعتبر من أخطر المراحل في الرياضة الروحية، وعلى الشيخ أن يتّخذ جملة من الاحتياطات لذلك، فينظر في الفروق الفردية بين السالكين ويتلطف في توجيههم، وإرشادهم بحسب قدراتهم "فكم من مريد اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيال فاسد لم يقوَ على كشفه، فانقطع عليه طريقه، فاشتغل بالبطالة

¹ المرجع نفسه.

² المرجع نفسه.

³ المرجع نفسه.

⁴ المرجع نفسه.

⁵ الغزالي أبو حامد، سر العالمين وكشف ما في الدارين، ص 493.

⁶ الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين ج 3 ص 77.

وسلك طريق الإباحة وذلك هو الهلاك العظيم. ومن تجرّد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخلُ عن أمثال هذه الأفكار. فإنه قد ركب سفينة الخطر، فإن سلم كان من ملوك الدين، وإن أخطأ كان من الهالكين¹.

والغزالي في شرح تلك المخاطر التي تطرأ على المرید أثناء الخلوة، يتفق تماماً مع ما ذهب إليه الإمام القشيري من أنّه "يكون للمریدین على الخصوص بلايا من هذا الباب، وذلك أنهم إذا دخلوا في مواضع ذكرهم أو كانوا في مجالس سماع أو غير ذلك يهجم في نفوسهم ويخطر ببالهم أشياء مُنكرة يتحققون أن الله سبحانه منزّه عن ذلك وليس تعريضهم شبهة في أن ذلك باطل، ولكن يدوم ذلك فيشتد تأذيتهم به"²

هذا وللشيخ في هذه المرحلة، دور هام في تصنيف السالكين وفرزهم وتوجيههم:

. فإن وجد في السالك قدرات عقلية وروحية، من ذكاء وفطنة وكياسة تمكنه من التصدي لتلك الخواطر أمره بالاستمرار على ما هو عليه من ملازمة الفكر حتى يُقذف في قلبه من النور ما يكشف له عن حقيقة ما يتشكك فيه.³
- وإن وجد قدراته لا تفي بذلك، عاجله بالوعظ والأدلة القريبة من فهمه حتى إذا ما سُفي، أمره بالرجوع إلى ما كان عليه.⁴

. وإن اكتشف أنّه غير مؤهل لمواصلة الرياضة الروحية، أعفاه من ذلك وردّه إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة، أو كلّفه بخدمة المتجردين للفكر لتشمله بركتهم "فإن العاجز عن الجهاد في صف القتال ينبغي أن يسقي القوم، ويتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة في زمريهم، وتعمّه بركتهم، وإن كان لا يبلغ درجتهم"⁵.

- مراتب العرفان:

ومن خلال الذكر الخاص وما يتعلق به من مجاهدات يكون السالك قد قطع عقبات كثيرة تتمثل بدايتها في إصلاح جوارحه، ثم تترقى نفسه بعد ذلك فتصبح قلباً، ثم سرّاً، ثم روحاً. ولا يبلغ مرتبة من المراتب إلا وتشرق عليه فيها معارف ومواهب جديدة. وتوضيح ذلك كالتالي:

أ_ اجتياز العقبة الأولى: وهي فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية⁶.

ب . اجتياز العقبة الثانية: ويتمثل في فطم النفس عن المألوفات العادية. ونتيجة هذا أن يطلع السالك على العلوم اللدنية⁷.

ج . اجتياز العقبة الثالثة: وهي فطم القلب عن الرعونات¹ البشرية. ونتيجة هذا أن تلوح للسالك أعلام المفاجأة الملكوتية².

¹ المرجع نفسه ، ص، 78.

² القشيري، الرسالة القشيرية، ص 182، 183.

³ الغزالي، إحياء علوم الدين ، ج 3، ص 77.

⁴ المرجع نفسه.

⁵ المرجع نفسه ، ص 87.

⁶ الغزالي أبو حامد، روضة الطالبين، ص ص 97 ، 98 .

⁷ المرجع نفسه.

د- اجتياز العقبة الرابعة: وهي عبارة عن فطم السر³ عن الكدورات الطبيعية، فتلمع للسالك أنوار النازلات القريبة⁴.
هـ. اجتياز العقبة الخامسة: وتمثل في فطم الروح⁵ عن البخارات الحسية، فتطلع نتيجة ذلك على السالك أعمار المشاهدات الحبية⁶.

ومما تقدم يتضح جليا أن الطريق الصوفي مركب من مقامات ومراتب، وقد يقطع السالك بعضها منها ويعجز عن اجتياز بعضها الآخر، وذلك يرتبط أساسا بجملة الاستعدادات القدرات العقلية والروحية التي يتمتع بها، مما ليس للشيخ دخل فيه، إذ أن مهمة الشيخ تكمن في مساعدة المرید على استثمار ما لديه من قدرات واستعدادات فحسب. وبعد الانتهاء من فترة الرياضة الروحية، التي قد تطول أو تقصر بحسب حالة السالكين، يحصل للسالك حضور دائم مع الله وينكشف له جلال الحضرة الربوبية ويتجلى له الحق ويظهر له من لطائف الله تعالى "ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلا"⁷ وهذا ما يطلق عليه في التصوف علم الأسرار.

ومن تلك الأسرار ما أشار إليه الغزالي في قوله: " فواظب عليه (أي على الذكر) لأنه يكشف لك من سرّ الربوبية ما يغنيك عن ملتصق كل حال، تشاهد الملائكة ويخدمك مؤمنو الجن، وتطيعك أعضاؤك ويوزل وقر أذنك فتسمع تسبيح الجمادات: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: 44]، وبه (= الذكر) بلغ أصحاب المقامات درجات المكاشفات والسير على الماء والهواء... و به تُجذب الملوك إلى المتزهدين، وبه تنال مراتب العاشقين"⁸

وقد أشار الغزالي إلى بعض تلك الفتوحات . التي لا يستبعد أنه قد شاهدها أثناء رياضته . فقال: " ومن أول الطريقة بتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم (= السالكون) في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد"⁹.

وفي هذه المرحلة يحقّ للشيخ أن يأذن للسالك بالخروج من الخلوة، ومباشرة الحياة الاجتماعية، بعد أن اطمأن على نجاحه في السلوك.

¹ جمع رعونة وهي: الوقوف مع حظوظ النفس ومقتضى طباعها. يُنظر القاشاني: اصطلاحات الصوفية، ص 150.

² الغزالي أبو حامد، روضة الطالبين، ص ص 97 ، 98 .

³ السر: لطيفة روحانية مودعة في القالب الجسماني، تقتضي أنّها محلّ المشاهدة. والسرّ ألطف من الروح، كما أن الروح ألطف من القلب. ينظر: القشيري، الرسالة القشيرية، ص 45 .

⁴ الغزالي أبو حامد، روضة الطالبين، ص ص 97 ، 98 .

⁵ قال الجنيد: الروح شيء استأثر الله بعلمه. وقال غيره: الروح جسم يلطف عن الحس، ويكبر عن اللمس، ولا يعبر عنه أكثر من موجود، ينظر: الحفني عبد المنعم، مصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1987، ص 114.

⁶ الغزالي، روضة الطالبين، ص ص 97 ، 98 .

⁷ الغزالي ، إحياء علوم الدين ج3 ص 77 .

⁸ الغزالي ، سر العالمين وكشف ما في الدارين، ضمن رسائل الغزالي ، ص 495 .

⁹ الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 88 .

غير أن هناك مخاطر يقع فيها بعض السالكين أثناء الرياضة و بعدها وهي **الاغترار بما يلوح لهم من كرامات** فيقفون عندها متوهمين أنها نهاية المطاف، وقد يتحدثون بما عجبوا وافتخاروا ورياء¹.

والكرامة هي أفعال خارقة للعادات، مقدورة لله تعالى وقد تكون على نوعين:

أ. كرامة بين العبد والرب من المواهب التي لا يسعه فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل وهي الكرامة الحقيقية.

ب. كرامة يطَّلَع عليها الخلق وهي من جنس خرق العادات²

وقد حذر الصوفية من الالتفات إلى الكرامات والاشتغال بها. فقد ذُكرت الكرامات عند الشيخ سهل بن عبد الله التستري³ رحمه الله فقال: "وما الآيات والكرامات؟ أشياء تنقضي لوقتها. ولكن أكبر الكرامات أن تُبدَّل خلُقًا مذمومًا من أخلاق نفسك بخلق محمود"⁴.

ومما يروى عن الشيخ أبي يزيد البسطامي رحمه الله أنه قيل له: "فلان يمرّ في ليلة إلى مكة. فقال: الشيطان يمرّ في لحظة من المشرق إلى المغرب وهو في لعنة الله. وقيل له: إن فلانا يمشي على الماء. فقال: الحيتان والطير في الهواء أعجب من ذلك"⁵.

ومما سبق نستنتج أن اشتغال المرید بتحصيل الكرامات قاذح في إخلاص عبوديته. ولذا وجب عليه أن لا يشتغل بها " ولا يسكن إليها البتّة، ولا ينبغي أن ينتظر حصول أمثال ذلك، فإن ذلك كله شواغل عن الحق سبحانه"⁶. فرمما كانت تلك الكرامات امتحانا له واستدرجا، فيكون استثناسه بها من أضرّ الأشياء به⁷.

ومن مهامّ الشيخ في مثل هذه الحالة إذا رأى ظهور بعض الكرامات على مریده، أن يكتمها عن غيره، ويصعّرها في عينه، ويرفع همته في طلب المعرفة بالله والاستقامة على الشريعة الإسلامية المطهّرة "فإن ذلك كله اختبارات والمساكنة إليها مكر"⁸.

إن تلك البوارق⁹ ليست إلا فتوحات أول الطريق¹ ومهما التفت السالك إليه تعطل عن السير ودخل في قلبه من الأمراض ما يجب عليه الإسراع في معالجتها. لأن المقصود من تركية النفس ليس نيل الكرامات ولا الكشوفات، وإنما

¹ الغزالي ، إحياء علوم الدين ج3 ، ص 78.

² أبو بكر بن عبد الله ابن شاهاور الرازي الأسدي، منارات السائرين إلى حضرة الله ومقامات الطائرين، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص 50.

³ من أئمة القوم اختلف في سنة وفاته قيل في 273 هـ، و قيل في 283هـ. ينظر: الرسالة القشيرية ص ص 14، و15.

⁴ السراج عبد الله بن علي الطوسي، اللع، تحقيق كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، ط2001، ص280.

⁵ المرجع نفسه.

⁶ القشيري، الرسالة القشيرية، ص183

⁷ المرجع نفسه ، ص ص183، 184.

⁸ المرجع نفسه ، ص 182.

⁹ جمع بارق وهو لائح يرد من الجناح الأقدس وينطفئ سريعا، وهو من أوائل الكشف ومبادئه. ينظر: القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص35. يقول الشيخ

محمد بن الحبيب في هذا الشأن:

ولا تقف مع البوارق ولا مع غيرها من كل شيء حصلا

المقصد الأسنى هو معرفة الله عز وجل. وذلك ما عبّر عنه الإمام ابن عطاء الله السكندري رحمه الله في إحدى حكمه فقال: " ما أردت همة سالك أن تقف عند ما كُشف لها إلا ونادته هواته الحقيقة: الذي تطلب أمامك. ولا تبرجت ظواهر المكونات، إلا ونادته حقائقها إنما نحن فتنة فلا تكفر"².

ومن مظاهر الانخداع بالفتح أن يزيّن الشيطان لبعض السالكين أعمالهم، فيوهمهم أنه يتعيّن عليهم البروز لإرشاد الناس ودعوتهم إلى الله. فيشتغلون بتزيين الكلام ويظيلون التفكير في اختيار المعاني التي تجلب له قلوب الناس، ظنا منه أنهم يدعون إلى الله، وإنما هم يدعون لأنفسهم طلبا للرفعة والشهرة والجاه.³

وقد بيّن الغزالي أن هذا النوع من المدّعين، غير مخلصين لله في ما يقومون به، والدليل على ذلك أنه إذا ظهر في أقرانهم داعيا إلى الله أحسن كلاما منهم، وأقدر على استجلاب قلوب الناس، اشتعلت في قلوبهم نيران الحسد، وأبطنوا لذلك الداعي كل شر⁴. وعلى كل حال فإن البروز للمشيخة وإرشاد الناس، ليس بالأمر الهين، لأنه يحتاج إلى شروط كثيرة، أهمها الإخلاص لله عز وجل.

وإذا كان الغزالي قد حذر من خطر الظهور لإرشاد الناس دون مؤهلات روحية، فإنه جرّب ذلك حينما كان يمارس التعليم طلبا للشهرة والجاه، ولم يستفك من سكرته إلا بعد أن سلك طريق التصوف⁵.

- **الخاتمة:** ذاك هو منهج تزكية النفس عند الإمام أبي حامد الغزالي، وضعه رحمه الله بعد أن خبره ممارسة ميدانية وهو مريد سالك، وطبقه وعابن نتائجه وهو شيخ مرب. وهو منهج لا يخرج في أطره العامة عن المناهج التربوية الصوفية، التي كانت سائدة في القرن الخامس الهجري وما قبله. وقد اعترف الغزالي أنه استلهمه من سبقه من شيوخ التصوف خاصة من آثار الإمام المحاسبي، و الإمام الجنيد، و الإمام أبي طالب المكي، والإمام أبي القاسم القشيري. إلا أن ما أوتيّه رحمه الله من بسطة العلم، وقوة الحجّة، مكّنه من جمع آثار أولئك السابقين وعرضها بأسلوب علمي مفصّل عميق، لم يسبق إليه، زيادة على ما أضافه إليه من خبرات شخصية، قلما نجد لها نظيرا في تاريخ التصوف الإسلامي.

هذا وما تزال طريقتة في التربية الروحية إلى اليوم محل اهتمام الشيوخ المريّين، يقتبسون منها مبادئهم، وأساليبهم في تربية المريدين، مع تحفظهم على صرامتها وصعوبتها، إذ أن " مدارها على الرياضة والتعب والمشقة"⁶.

ينظر ديوانه: بغية المريدين السائرين، ص34.

¹ الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين ج3 ص79.

² ابن عباد الرندي، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ج1، ص107.

³ الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين ج3، ص ص78،79.

⁴ المرجع نفسه.

⁵ ينظر: الغزالي أبو حامد، المنقذ من الضلال، ص83.

⁶ ابن المبارك أحمد السلجماسي، الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2003، ص303.

ولذلك نجد أحد شيوخ التربية المشهورين وهو الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله (591هـ-656هـ) يحدث تغييرات جذرية في تلك القواعد، مكثفا إياها وفق ما اقتضته ظروف عصره، بحيث جعل مدار طريقته "على الشكر، والفرح بالمنعم من غير مشقة ولا كلفة"¹.

وليس معنى ذلك أن طريقة الإمام الغزالي خالية من الشكر، أو أن طريقة الإمام الشاذلي خالية من الرياضات البدنية، بل إن كل واحدة منهما تتضمن ما تتضمنه الأخرى، إلا أن الإمام لغزالي يعطي الأولوية للمجاهدة، ويركّز على سير الأبدان، في حين يركز الإمام الشاذلي على سير القلوب دون كثير مجاهدات.²

أما عن مدى ملاءمة منهج الغزالي، للتربية الصوفية المعاصرة، فإن أغلب شيوخ التربية الصوفية المعاصرين، احتفظوا منه بشوابته التي تكاد تكون محل إجماع بين الصوفية على مر التاريخ الإسلامي وعدّلوا ما تبقى منه بحسب ما رأوه ملائما لروح العصر الذي يعيشون فيه.

¹ المرجع نفسه.

² المرجع نفسه ، 304.